الأغنية الجبلية مقاربة سوسيوأنثروبولوجية

Mountain Song: A Socioanthropological Approach

بشيرة عالية[1]، إبراهيم بن عرفة[2]

[1] مخبر الديناميات الاجتماعية في الأوراس، جامعة باتنة 1، (الجزائر)، bachira.alia@univ-batna.dz

[2] مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، جامعة باتنة 1، (الجزائر)، brahim.benarfa@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2022-02-04**تاريخ القبول**: 2022-06-10**تاريخ النشر**: 2022-06-15

ملخص:

تتميز الجزائر بتنوُع وتماسُف ثقافي كبير يظهر واضحا وجليا من خلال الطبوع الغنائية المتعددة والمختلفة نذكر منها الأغنية الجبلية، حيث أن البحث في مثل هكذا مواضيع وبالتحديد من منطلق سوسيوأنثروبولوجي على أساس أن الغناء صناعة إنسانية بحتة يعتبر من بين المواضيع التي ولجت الساحة المعرفية مؤخرا وسبل البحث فيه قليلة جدا، وربما كان واقع هذا العمل الإنساني يتميز بالصراع بين مؤيد ورافض له خاصة إذا ما تم توجيه سهام المقاربة الدينية كسبيل لدحض هذا الخزان التراثي لبني الإنسان، ولكن هذا الجانب من الوجود الإنساني يثبت أهميته يوما بعد يوما في بعث الأمل والتفاؤل وغيرهما من القيم التي يزرعها في نفسية المستمع. نهدف من خلال هذا المقال إلى الكشف عن العلاقة بين الموسيقى الفن الإنساني النبيل والعلوم الإنسانية والاجتماعية ومكانة الجبل كمعقل للقداسة لدى الإنسان.

الكلمات المفتاحية: الجبل؛ الأغنية؛ الثقافة؛ الموسيقى؛ الإنسان.

Abstract :

Algeria is characterized by a great cultural diversity, which is clearly manifested through the various and the different musical forms, in which we mention the mountain song, the research on such topics and specifically from a Socio-Anthropological view on the basis that singing is purely human is considered one of the topics that have entered the knowledge area recently, The ways to research this subject are very few and the reality of this humain work may be characterized by the conflict between a supporter and a rejecter, especially the religious approach arrows are directed to it as a way to refute this heritage reservoir of human beings but this aspect of the human presence proves its importance day by day in the revival of optimism and hope and other values planted in the the listener psycholigical

Keywords: Mountain; song; culture; music; human.

المؤلف المرسل: بشيرة عالية، **الإيميل**: aliabachira@gmail.com

بشيرة عالية، إبراهيم بن عرفة

مقدمة

في كل بقاع الأرض توجد موسيقى وأغاني يميزها العامي والعالم بصنفين: موسيقى كلاسيكية وأخرى شعبية فلكلورية، ونجد الكثير من الناس يخوضون في الحديث عن الموسيقى إما كمستمعين وفنانين، أو كنقاد وذواقين بمختلف مشاربهم الفكرية وتوجهاتهم الإيديولوجية والتي تعكس نظرتهم للفن عموما والموسيقى خصوصا، ورغم الثراء الكبير الذي يعرفه هذا الفن إلا أنه يعاني من نظرة الازدراء والنقص في مجتمعنا، خصوصا الطبوع الموسيقية الشعبية التي لم تجد يدًا منقذة من الثقافة العالمة تدرسها وتخضعها للقوالب العلمية والنقدية، وهذا لأنها فعلا لا تخضع لتلك القوالب العلمية الجاهزة التي بنيت عليها مختلف الفنون الموسيقية الغربية وإنما تحتاج غوصا عميقا في ثناياها وسبرا لأغوارها، فهي تتصف بالحيوية والحركية وتتغير معطياتها من منطقة إلى أخرى ومن كيان إلى آخر، حتى تعطينا ثمرة لمنتوج إنساني يميزه الطابع الغنائي الذي أصدره وآلفه الفنان أو المغني المرتبط بثقافته وأصوله وبيئته.

وإذا اخترنا لهاته المقالة عنوان **الأغنية الجبلية** فلا ينتظر منا القارئ والمستمع دراسة صافية لمختلف الطبوع الغنائية في المجتمع الجزائري أو حصر الطابع الغنائي الجبلي في هاته المقالة فقط، لأن الموضوع شاسع وأكبر من أن تحتويه ورقة بحثية، وفيه من الدراسة والبحث ما يمكن أن تنجز حوله مجموعات بحثية وفرق دراسية.

وعليه تنحصر إشكاليتنا هنا حول حضور الأغنية الجبلية في الحياة الموسيقية وما لها من دور في ترسيخ الشخصية والهوية للمجتمع المحلي في عصر يشهد التطور والتقدم الملفت للانتباه يوميا وفي جميع الأطر.

- فأي فائدة نرجوها من الدراسة السوسيوأنثروبولوجية للأغنية الجبلية؟
- هل تؤدي الأغاني الجبلية وظائف داخل إطارها الاجتماعي والثقافي؟
- كيف يمكن للأغاني الجبلية التعبير عن هوية المجتمع؟

أولا: ماهية الغناء والموسيقى

1. في نشأة الموسيقى:

إذا ما رجعنا إلى الماضي السحيق فإننا نلاحظ أن الإنسان الأول كانت له القدرة على الإدراك بما يحيط حوله من: الظواهر الطبيعية والتقلبات المناخية، محاكاة الطبيعة من الأصوات الخاصة بالملموسات الطبيعية كالرياح والمياه والصدى، وتقليد صوت الحيوانات والطيور، فكان يتكيف نفسيا وفق ما يسمعه ويقلده بالمحاكاة ويرتجف للأصوات المخيفة ويهتز طربا للأصوات التي يحس فيها بالأمن والسعادة (بيطام، 2013، صفحة 233)، وعلى مر الأيام حاول محاكاتها وتقليد مختلف الأصوات التي تصدر عنها من حفيف الأغصان، خرير المياه، همسات النسيم، قصف الرعود، أصوات الوحوش والضواري. وبعدها شرع في تنظيم الأصوات لنفسه بابتكار أغنيات بسيطة يعبر بها عن ما يجول في خاطره ونفسيته كمخلوق حي ينتابه الخوف والفرح، السرور والحزن، المرض والصحة، القوة والضعف، في ثنائيات عبر عنها **بيير بورديو** في تناوله للنظرية الرمزية على أنها أصبحت عادة اجتماعية بواسطة تكرار التقليد.

فمسألة التكرار لعملية معينة أو النشاط " اللاشعوري" لعملية ما والناتج عن تكرار فعل حتى ولو كان فعلا اجتماعيا يصبح عادة إنسانية، ومفهوم العادة أضيق من المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة، وقد عبر عن ضيق مفهوم العادة habitude في كتابـــــه "الحس العملي"، مستعملا مفهوم habitus أي "النزوع الشخصي الاجتماعي"، فهذا المفهوم يشير إلى عملية إنتاج الأفكار ثم إعادة إنتاجها مع تغير الظروف الاجتماعية أيضا، واستمرارية هذا النشاط باستمرارية تطور المجتمع (عطية، 1993، صفحة 48)، وبالتالي فتلك التقابلات التي كان يعيشها الإنسان بشقيها الظاهر والخفي جعلت منه منتجا للفن والموسيقى.

2. مفهوم الغناء والموسيقى:

يقول **الفيروز آبادي** (آبادي، 2005، صفحة 617): الغناء من الصوت ما طرب به، وهذا هو معناه اللغوي. أما معناه الاصطلاحي كما يقول العلامة العربي **ابن خلدون:** فهو تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعا عند قطعه، فيُكَون نغمة ثم تؤلف

تلك النغمات إلى بعضها على نسب متعارفة، فيتلذذ لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات.

ويمكن تعريفه بأنه: إنتاج أنغام بصوت الإنسان بكلمات... أو من دونها وهو شكل من الأشكال الطبيعية في التعبير، وتعرفه كافة المجتمعات والثقافات قديما وحديثا في كافة أنحاء العالم...كما يمكن القول أن: الأغنية من فعل غَنّى يُغنّي أُغنية، وتغنّى بالمرأة أي تغزّل بها، وغنّاه بها أي ذكره في شعر، وقد ذكرها **ابن خلدون** في مقدمته: ... والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء (ابن خلدون، 2008، صفحة 427).

3. الأنثروبولوجيا الموسيقية:

يتداخل مصطلحا إثنوموسيقولوجيا وأنثروبولوجيا الموسيقى التي اهتمّت بموضوع الموسيقى ذات التقاليد الشفوية حدّ الترادف، بقدر تداخل مصطلحي "إثنولوجيا وأنثروبولوجيا" في الكتابات العلمية المرتبطة بالعلوم الإنسانية حد التساوي في المفهوم الضمني.

وعبّر **سفيان الفقيه** عن هذا الرأي بالقول: "تُعدّ أنثروبولوجيا الموسيقى والإثنوموسيقولوجيا مبحثين متجاورين يصعب رسم الحد بينهما، وربما قد لا يستوجب الأمر ذلك".

فقد اشترك المبحثان أولا في التوجّه إلى موضوع البحث نفسه الذي هو الموسيقى والغناء كصناعة إنسانية، وتركّز اهتمام الروّاد الغرب خلال فترة هامة من القرن الماضي على الموسيقى ذات التقاليد الشفوية داخل مجالات جغرافيّة اعتبرت نائية تمارسها مجموعات عرقية صغيرة وُصفت بـ"البدائية"، حتى انفتح الاهتمام لاحقا إلى مختلف ثقافات العالم ليُطَال موسيقى المجموعات الاجتماعية المحليّة داخل المجتمعات الكبرى (الشريف، 2018).

كما اشتركت الإثنوموسيقولوجيا والأنثروبولوجيا الموسيقية في منهج البحث المتبع لإنجاز الدراسات العلميّة، والمرتكز أساسا على العمل الميداني المباشر والمواكب لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة، حيث يستقي فيه الباحث معلوماته من خلال الملاحظة بالمشاركة، بيد أن قراءة مستفيضة للدراسات النظريّة الإثنوموسيقولوجية تبرز تباين توجهين رئيسيين في الأهداف الرئيسية للمبحث. فقد أسست البحوث الإثنوموسيقولوجية خلال مراحل تطوّرها بين تيارين متباينين نسبيّا هما:

- **تيّار نظامي**: صرفٌ ينطلق من المادّة الموسيقيّة الخاصّة بالأقليات العرقيّة لفهمها من خلال البحث فيها، واستخراج القوانين التي تحكم نظامها، والتعرّف إلى طرق تنفيذها وتواترها، والوقوف على خصائص الآلات الموسيقيّة المستعملة فيها.
- **تيّار ثقافويّ**: ينطلق من أنساق الممارسات الثقافيّة، ومن سلوك المجموعات التابعة لها لتفسير الظواهر الموسيقيّة، وتداخلها مع مجمل تَمفصُلات الحياة العامة، وما يحوم حولها من دلالات ووظائف اجتماعية، وتمثّلات نفسية وعاطفيّة.

4. الأغنية الجبلية:

تتميز الأغاني الجبلية بالتميُز والتماسُف الفني واللغوي الواضح والجلي الذي يميز الثقافة الشعبية الجزائرية، وهذا لأنها حصيلة ما جمعه التراث الإنساني عبر أجيال وعصور وفي مختلف البيئات، ويمكن القول أنها تعبر عن الوجدان الفكري، النفسي، العاطفي، والاجتماعي، وتذهب بنا إلى عالم الخيال الواسع فتشدنا بعض المفردات والطبوع الغنائية نحو الانتماء العرقي لمؤديها، وأخرى إلى الانتماء القومي، وأخرى تحكي عن الأمجاد والبطولات في شكل لغوي مزخرف يمنح المستمع نشوة الإبحار في الزمن والمكان لتعلو نفسيته إلى عالم يصبو إليه.

ونقصد بالأغنية الجبلية هنا كل الطبوع الموسيقية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالثقافة الشعبية، التي تؤسس لمجد وعظمة الجبال وساكنيها من الأولين أو الآخرين، وما يرافق ذلك الكيان المهيب من شموخ ومجد لا يتمكن منه الناس أجمع إلا القلة القليلة من المحظوظين. إذن فالأغنية الجبلية صناعة إنسانية خاصة بمنطقة جغرافية محددة هي الجبل إما التغني به لعظمته وشموخه، أو الإقامة به، أو لأنه مستقر الأنبياء والرسل، ومقر خلوة العظماء...، فهاته الصناعة هي تلحين للأشعار الموزونة المؤداة من طرف شخص له ارتباط وثيق بالجبل ككيان روحّي فوق الطبيعي تجاوزته نفسيته البشرية العادية... حتى أصبح يستلهم منه ما يؤديه من أشعار وغناء (برقوقي، 2017، صفحة 174).

ثانيا: الجبل كموضوع للإنسانيات

ظهرت الحركة البيئية في العلوم الإنسانية والاجتماعية في ما يسمى بالتيار الإيكولوجي الذي يدعو إلى الرجوع نحو الطبيعة، وهذا بطبيعة الحال راجع إلى الهُوة الكبيرة التي شكلها التطور والتقدم التكنولوجي، فالجبل فيما مضى كان مقرا للسكن ومستقرا للحياة وسمة مميزة للحياة الريفية البدوية، إلا أن بوادر المدينية وحركاتها السريعة قضت تقريبا على هذا الجانب من الحياة الإنسانية، فصار الجبل مكانا خاليا من السكان إلا قلة قليلة، ورُبط بهالات الخوف وقصص الشر، وما دليل ذلك إلا انتشار الأفلام السينمائية التي تصور الجبل على أنه مكان للشر، وهنا انتفض التيار الإيكولوجي لنُصرة الجبل كبعد للترفيه وممارسة الرياضة والتخلص من الضغوطات التي تسببها الحياة اليومية، وتركُز العلوم الاجتماعية مثل الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، التاريخ والثقافة، على إظهار الروابط الوثيقة التي تربط ممارسات النشاطات اليومية الخاصة بالمناطق الجبلية، بالمعتقدات والتقاليد التي تنطبق عليها والتأثير الثقافي للمجتمعات على هذا الموضوع.

وكلما كانت هناك محاولة لفهم هاته الأنشطة كلما كانت هناك مساهمة في تنوير "معرفة المجتمع" في مجالات الأنشطة الجبلية، وعليه وَضعت هذه التخصصات العلمية نفسها كطموح لاستعادة وتطوير أنشطة التسلية الجبلية والمعاني المرتبطة بها، كما يقول الفرنسي **اميل دوركهايم** في سياق: "طرق التفكير والشعور والتمثيل لكل مجموعة بشرية " (féderation francaise des clubs alpines et montagnes).

1. المقاربة المفاهيمية للجبل:

يعتمد الباحثون من علماء الاجتماع والجغرافيا عدة معايير مرتبطة أساسا بالإنسان لمفهوم الجبل، ولوضع هاته المقاربة كان ولا بد من مرورها بعدة مراحل (العثماني و الغازي، 2013):

– **المرحلة الأولى**: هذه المرحلة تميزت بهيمنة المقاربة الفيزيائية ويوصف الجبل على أنه مجال يتميز بتحديات كبيرة، وجُل الآراء السائدة تعتبر الجبل (مجموعة من الإكراهات)، وفي هذه المرحلة نشير إلى أن التعريف حضرت فيه الحتّمية الطبيعية بقوة، ويعتمد أصحاب هذا التعريف على الأنشطة التي يمارسها الإنسان في الجبال وهي أساسا أنشطة تجمع بين الرعي والزراعة، كما أنها معاشية بالأساس وتستعمل أدوات عتيقة في الإنتاج (العثماني و الغازي، 2013).

– **المرحلة الثانية:** في هذه المرحلة تم اعتماد مفهوم النظام (المقاربة النسقية)، وفي الجبال تتطور المفاهيم وتخضع للقياس (التراب، التنمية...)، وبدأت تُوصَف على أنها مناطق تعاني من العزلة والتهميش، ويتم تحديدها بمؤشر التنمية البشرية والاجتماعية (المسالك الرئيسية والثانوية، الكهرباء، الماء...) وهي جزء من المجالات الجبلية، وبالتالي تم اعتبار الجبال على أنها أوساط لتقييم المفاهيم، ففيها تخترع الممارسات الجديدة في النقل والسياحة، وفيها يمكن تجريب نتائج سياسة إعداد التراب، وتقدم الجبال أيضا نموذجا خاصا ببعض أشكال التنمية الذاتية التي تتقاطع مع المستديمة في إطار شراكة بين الفاعلين، وتصبح الجبال بذلك مختبرا لمفهوم التنمية الترابية (العثماني و الغازي، 2013).

2. الجبل في المخيال الإنساني:

شكل موضوع "الجبل... الثقافة... الإنسان... التنمية المستدامة" مدخلا هاما للبحوث الإنسانية والتاريخية، في جانب العلاقات التي تحكم شموخ وهيبة هذا الكيان أو الجماد العظيم مع بني البشر، وذلك من خلال تمثلات: الجبل في الأدب، الجبل التاريخ والإنسان والمجتمع، الفنون والأشكال التعبيرية في الثقافات الجبلية، الجبل ورهانات التنمية المستدامة.

حيث يلعب الجبل دورا كبيرا في العلاقة الجدلية بين الإنسان ومحيطه الطبيعي، من خلال تأثير هذا المحيط على كل الأشكال التعبيرية والوجدانية، كالشعر، الغناء، الرقص، الفنون التشكيلية، الأهازيج، والأحاسيس من حب وإخاء وتضامن، وعلاقة المرأة والرجل داخل المجال الاجتماعي الجغرافي لهاته المنطقة، بل وأبعد من ذلك إلى حدود التأثير على العلاقات الاجتماعية من الإنتاج المشترك للثروة المادية والروحية، وفرض قيم التضامن والانفتاح من خلال فتح المجال أمام الجميع، خاصة فيما يرتبط بالميدان السياحي والاستفادة من خصوصية المكان التي تميزها المؤهلات والعطاء الطبيعي، مما يشكل أرضية لتحقيق التنمية المستدامة، فالجبل هو موطن التنوع الثقافي والموروث الغني والتقاليد العريقة والموارد الطبيعية الوافرة.

وعليه فالعالم المكون من ثنائية (الإنسان/الجبل) يشكل منظومة تضامنية وذكية، لها منطقها الداخلي مع ديناميكية الخاصة ومهارات في مختلف المجالات (الزراعة، الصناعة التقليدية، الثقافة)، فقد عرف إنسان الجبل رغم الظروف الصعبة كيف يطور مجموعة من الفنون الخلابة: الرقص، الغناء، الشعر،

الأزياء، الصناعة التقليدية والفنون التشكيلية... والتي تستحق أن تُعرف ويُعترف بها (السعيد، 2014). ويتخذ حوالي 6/1 مليار نسمة من الجبال مسكن ومأوى لهم في مختلف أقطار العالم، إلا أن الكثير من القرى والمدن الواقعة على هذه المرتفعات تعاني من شحّ الخدمات الأساسية، مثل التعليم والصحة، بالإضافة إلى تدني المستوى المعيشي، كما يستفيد حوالي مليون نسمة أخرى من السكان القرويين من مجاري الأنهار الجارية من الجبال بطريقة غير مباشرة.

3. الجبل في الذاكرة العربية والإسلامية:

تخضع الجبال لتمثلات الإنسان المرتبطة أساسا بقناعات فردية، فهي قبل أن تكون مجالات للترفيه تعتبر أماكن مقدسة لأنها مَهبط للرسالات السماوية، ومستقر للأولياء والزهاد والنساك ومعاقل للمجاهدين المرابطين في سبيل الحرية، وبذلك تكون جد محمية من الضغوط البشرية، كما تعتبر آخر أماكن لجوء وانطواء للمضطهدين أو الهاربين الراغبين في الحماية...، وفي كل الأحوال فالجبال أماكن متفردة ومنفصلة عن الدينامية المجتمعية المسيطرة فهي الملهمة والمعبرة عن الأفكار والرؤى، وبالتالي المحافظة على قيمها الجوهرية وجودتها المتفردة وعلى حماية الأنظمة البيئية، وبذلك تشكل أماكن ساحرة لها حضور خاص في الذاكرة العربية. يمكن أن يكون موضوع دراسة مستقلة ابتداء من كونها الأوتاد والرواسي في النظام الأرضي وتثبيت الكون...، وكونها مهبطا للوحي على الأنبياء كجبل الطور في سيناء مصر، جبل الرحمة (جبل ثور) في مكة والذي يحتوي غار حراء...، وكونها الدالة على نهاية الزمان مصداقا لقول الله عز وجل في القرآن الكريم:﴿...ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (105) فيذرها قاعا صفصفا (106) لا ترى فيها عوجا ولا أمتًا (107)...﴾ (سورة طه).

كما أن حضورها تجسد أيضا في المخيال الشعبي في جبال واق واق... حسب حكايات وقصص ألف ليلة وليلة، إنها الحد والنهاية والفاصل والتُّخُوم...، إنها تميمة تحتاج منا إلى جهد لدراستها ثقافيا على الأقل (مونسي، 2010)

4. العلاقة بين الأغنية والجبل:

إذا ما تأملنا في البعد التاريخي لموضوع الجبل كظاهرة ثقافية وككيان مهيب يشعر متأمله بالرهبة، فإننا سنجد مرجعية غنية تمتدّ في أعماق التاريخ تتميز بتوظيف هذا المفهوم توظيفا دينيا، خرافيا، فنيا، من

أجل خلق صبغة فنية لها ملمس على نفسية المتلقي في الإستماع، وكلما كان إحساس الشاعر أو الفنان أو المغني كل في موضعه بعمق المرجعية التي يركن إليها، كلما تعددت في يده إمكانات الاستعمال وأسعفته القدرة الإبداعية على المزج والتركيب بين العناصر الدينية، التاريخية والخرافية، حتى يؤلف منها "تركيبة" غاية في الجدة والإبداع. وقد رأينا **ابن خفاجة** يعمد إلى خاصية "الإحساس والحياة" التي نبّه إليها القرآن الكريم، ليجعل منها مادة للحوار في قوله جل وتعالى: ﴿وآتينا داوُد منا فضْلاً يا جبال أوّبي معه والطير ألنَا له الحديد (10)﴾ (سورة سبأ)، وكأنه يرى تأويب الجبال مع "داود" عليه الصلاة والسلام، مدعاة لبث الحياة في جبله الخاص قائلا:

وقور على ظهر الفـلاة كأنه طوال الليالي مفكر في العواقب (الطباع، 2006، صفحة 48).

لم يكن الجبل ملاذا للأنبياء والرسل ومهبطا للرسالات السماوية فقط، وإنما تعداها ليصبح ملهما للعابدين والناسكين أصحاب الأديرة للتعبد والخلوة، وملاذا للفارين من الحروب والموت، ومركزا لرباطة الجأش للمقاتلين والثوار، وبعد ذلك كله مكانا سحريا للشعراء والمغنين...، فلم يتوان أي شخص له صفة مما سبق ذكره في استغلال فرصة الانعزال والخلوة الجبلية استغلالا قويا، ولنا مثال عن ذلك في شاعر الثورة المفداة **مفدي زكريا**، وهو في معرض الحديث عن الثورة التحريرية والتغني بها وليس بين يديه سوى الجبال ملاجئ للثوار يأوون إليها، فتتحول إلى ثكنات، مدارس، مستشفيات، وإقامات منيعة، وصلابتها وثباتها يوحي للمستعمر بصلابة عود أهل البلد وثباتهم، فهي رمز ذلك الإصرار الذي توارثته الأجيال منذ القدم (مونسي، 2010).

وقياسا على ذلك فإن أغلب مؤدي الأغنية الجبلية وجدوا في هذا الكيان ما يغترفون منه ثقافيا وفكريا وروحيا وفنيا، كما يكتسي هذا الفضاء أو المجال أهمية بالغة في عالم المعتقدات والممارسات السحرية لأنه ينتمي لمجالات متعددة ترتبط بالمقدس والمدنس، فضاء الظاهر والجلي من الجبل، وفضاء الخفي منه (طواهري، 2016، صفحة 106)،كما تجدر الإشارة إلى أن الأغنية بصفة عامة هي منتوج ثقافي به عدة أبعاد أهمها المنفعة الاقتصادية التي تعود على مؤديها من خلال بيع مقولاته الفنية مع حقوق التأليف، وكذا منفعة نفسية لجمهور المستمعين وما تشكله تلك الأغنية من بعد إصدارها في الحفلات والمناسبات

وكذا اللوحات الإشهارية، فهنا تكون الأغاني والموسيقى قد حققت لب النظرية الاقتصادية في الأنثروبولوجيا.

كما نذّكر أيضا أن الأغنية الجبلية تم تصنيفها في باب أغاني العمل، فرُعاة الغنم يغنون وهم في سعي حثيث لتطوير وتحسين أغنامهم أثناء الرعي الجبلي، وكذا الحطابون الذين يستعينون بهاته الأغاني للتغلب على الروتين اليومي لمهنتهم الشاقة، وبعض جامعي الأعشاب والثمار من البرية، ناهيك عن الفلاح وأغاني الحصاد...، ويمكننا تصنيف الأغاني الجبلية المرتبطة بهذا الجسم الضخم الصلب إلى أغاني تمجيدية للجبل، أغاني تحكي عن التاريخ، وأخرى نُسجت في بيئة الجبل، وأخرى تحن إليه كملجأ وملاذ.

ثالثا: تقسيمات الأغاني الشعبية الجبلية وأصنافها

ارتبطت الأغنية الجبلية منذ القدم بموضوع الجبل كفضاء جغرافي دافع ومحفز أو كموضوع للأغنية في حد ذاتها، له علاقة وثيقة بالثقافة الشعبية التي تظهر في المناسبات والمهرجانات المختلفة وتميزها استعراضات البارود الفلكلورية.

1. أقسام الأغنية الشعبية والجبلية:

بناءا على ما سبق يمكن القول الأغنية الشعبية والجبلية عموما في تأديتها مكونة من قسمين:

– **المْقَادية:** وقوف المغني أمام العامة مستعرضا لمحة من الشعر أو النثر المؤلب للقلوب والمحرض للذاكرة من أجل الغوص في خبايا المكان، وتحريك مشاعر المستمعين وشهواتهم الباطنية لإشباع الغريزة الروحية، وهي أيضا موضوع الأغنية الذي يحمل الإشارات والمعاني والرموز النفسية والروحية، كالفرح والحزن، السعادة والألم، الانتصار والهزيمة، مع التغني بقساوة المنطقة الجبلية أو طبيعتها الخلابة في شكل غزل يستعطف هذا الكيان العظيم أمام الإنسان، مع تأدية بعض النداءات المعبرة عن الحالة النفسية للمتلقي أو الفنان.

– **التَرْباخ:** وهو اندماج كلي في الحدث الموسيقي من خلال مساعدة الآلات الموسيقية المتمثلة أساسا في الناي والبندير (الدف)، حيث يحدث إيقاعا موسيقيا رائعا يجذب المستمعين إلى الدخول في حالة من الرقص والتصفيق تحت تلك الأنغام، وفي أحيان أخرى إلى الصرع تحت وطأة الأصوات القوية لهاته التأدية، والحالة الأخيرة قلما تشاهد في حفلات الزفاف لأنها مرتبطة أساسا بطقوس الحَضْرة التي تمارس أثناء زيارة

الأولياء أو عند استحضار الجن في المناطق الجبلية الخالية عن أعين الناس (وتحدث هاته المظاهر خصوصا في الزردات والوعدات في مختلف أنحاء الوطن بشهادة بعض المخبرين).

2. بعض الطبوع الغنائية الجبلية

– **العَيْطة:** وهي لفظة تطلق على الأغنية الجزائرية البدوية النشأة والكلام في منطقة الغرب الجزائري، وترجع أصولها إلى الولي الصالح **سيدي عبد الرحمان المجدوب** دفين مكناس بالمغرب، الذي ذكر في كتابه: **(عيطت عيطة حنينة فيقت من كان نايم فاقوا قلوب المحنة ونعسوا قلوب البهايم)**

ويستفاد من كلامه أن العيطة أو المناداة بصوت جهوري هي للفت الانتباه وجذب اهتمام الغير حتى يحضروا إلى مقامه، واشتقت كلمة عيطة من النداء الذي كان يعمد إليه رئيس الفرقة أو أحد أفرادها ليأذن لهم بالمجيء، فتحط الفرقة الرحال بالمنطقة المقصودة لأداء عملها الفني قبل أذان العصر، كي تجمع شمل الجميع من المتحابين في هذا المجال ويكونوا على أتم الاستعداد، فيقدم لهم الطعام وتبدأ المراسم الشعبية المتمثلة في إشعال الضوء على القناديل المعلقة أو المصابيح الكهربائية إن توفرت، ويخصص مكان لتسخين البنادير (جمع بندير وهو آلة من الآلات الموسيقية وهو الدف) المصنوعة من جلد الماعز، وتبدأ مباشرة تلك الطقوس الغنائية التي تسرد جزءا من حياة الناس في هاته المنطقة.

– **العْرُوبي**: وهي أغاني تبدأ بارتجال المغني في قوله للأبيات الشعرية التي يبدأ بها الأغنية مهيأ الجو العام للجمهور المتلقي، ومن بين أحسن العروبيات الخاصة بالأغنية الجبلية من الناحية الموسيقية في الجزائر هي الطبوع الشاوية المرتبطة بالفانطازيا والبارود، ولا تقل عنها شأنا النايلية أو الأمازيغية وكل منها له مميزاته، فتبدأ الأغاني بنوبات لأشعار ممجدة للمنطقة وتضاريسها الشامخة، ليشق الطريق في الغزل أو المجون أو البكاء على الأطلال، نذكر منها أغنية الفنانة القديرة الجزائرية **بقار حدة** رحمها الله في أغنيتها الشهيرة: جبل بوخضرة وهي منطقة تقع أقصى شرق الجزائر حيث تقول:

جبال بوخضرة يا جبال بوخضرة جاك الطير يقلب في حجارك

واش نهدي لخالي نهديلو عين من عينيا نبقى بوحدة بزاف عليا

اوهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها

بشيرة عالية، إبراهيم بن عرفة

جبال بوخضرة جاك الطليان قلب حجرك وقت الميجال سيب فجرك

يا يحي بن طالب نعطي الجاوي ونزيدك نهار الميجال احضر بايدك

أما الوصف فهو كما يذكره السيد **عبد الرحمان مكاحلية** على لسان والده الذي عاصر الفنانة، (مكاحلية، 2016) حيث يروي ما يلي:

الزمان: في الخمسينات من القرن العشرين، المكان: قَلْعة سْنَان ولاية الكاف – تونس– صباحا عند نهوضها مبكرا بعد أن استدعيت من طرف إحدى العائلات التونسية لتحيي عرسا بقلعة سنان، وجدت قبالتها مباشرة إلى الغرب – الجزائر– جبل ضخم عالي مترام بأجنحته الخضراء –الغابة– سألت عنه فأخبروها أنه جبل بوخضرة (جبل في ولاية تبسة وبوخضرة بلدية منجمية شهيرة تقع على بعد 20 كم على الحدود التونسية)، وعن يسارها شاهدت جبلا آخر فقالوا لها: أنه جبل بُوجَابر الحدودي –نصفه جزائري والآخر تونسي– سكتت بُرهة ثم بدأت تغني لهما بِعُنْفُوانية دون أن تدري أن هذه الأغنية ستتصدر صدارة أغانيها، وأنها ستدخل تاريخ الفن من بابه الكبير، إلا أنه زمن الاستعمار (مكاحلية، 2016). وبالتالي إذا ما صغنا النظرية الرمزية في تحليل تقابُلات المدنس والمقدس **لبيير بورديو** (Bourdieu, 1980, p. 445) فإننا نوجزها كما يلي:

الغناء للثورة **مقدس** / التطبيع مع الاستعمار **مدنس**

الغناء للنسوة **مدنس** / مساعدة الثوار **مقدس**

الجبل معقل **القداسة** / الأرض المفتوحة **مدنسة**

فالجبل وغناء الثورة ومساعدة الثوار لتحرير بلادهم تعتبر من الكيانات المقدسة في ثنائيات الرمزية النظرية **لبورديو**، فيما يقابلها النساء الجانب الخفي، التطبيع والخيانة، والأرض المفتوحة تحمل كل مدنس من ثنايا الوديان ومصبات الجبال، فالجبل هنا تعدى الفضاء المادي بالدال والمدلول إلى البعد الروحي الرمزي الملهم للشخصيات الثورية والأساطير الكونية، والروايات التي خلدت فيما بعد على شكل أشعار وألفت منها الأغاني التي تحمل هذا الطابع من التراث الإنساني.

– **الفوندو**: حسب الباحثة التونسية في الإثنوموسيقولوجيا **الزازية برقوقي** فإن لفظة إيطالية تستعمل كنعت لنوع من الحجارة الكريمة، وتستعمل للدلالة على الأغاني الشعبية المتداخلة مع الأغاني الكلاسيكية (برقوقي، 2017، صفحة 178)، مثال هذا النوع هو فوندو **الشيخة الريميتي** في أغنيتها الشهيرة: "أنا وغزالي في الجبل نلقط في النوار"، تضمنت تركيبا من ثلاثة أجزاء: أبياتا ذات قافية، وأداء موسيقيا حديثا بالأنغام الخاصة بالأوركسترا، وأخيرا الوصول إلى النثر الشعبي والاختلاء بالحبيب في موضع لا يمكن الوصول إليه، فكان هذا الطبع يصبو إلى الغناء الماجن كنوع من أنواع الفوندو.

– **التَعْليلة (التَرْحاب)**: هذا النوع من الغناء والموسيقى أيضا بحسب الباحثة **برقوقي** يشمل الأغاني الخاصة بالمولد النبوي الشريف، الختان، والحفلات المناسباتية، حيث يتم اصطفاف جموع من الشباب برداء أبيض إلى صفين ويؤدون الأغنية الترحابية أو التعليلة مرحبين بمولد خير البرية، أو مرددين عبارات ذات طابع شعبي مرتبطة ارتباطا وثيقا بجغرافية المنطقة: "صلوا على نبينا" (برقوقي، 2017، صفحة 179).

– **الرَكْروكي**: من أشهر الأنواع وأوسعها امتدادا في منطقة الشرق الجزائري وخصوصا منطقة الشاوية، وهو نوع من الأداء الموسيقي والأغاني الشعبية ويرتبط ارتباطا وثيقا بالمنطقة الجبلية، نجده منتشرا بين الرُعاة الذين يحملون آلة القصبة أو ما تسمى بالناي والغيطة، وهو منتشر في جميع بقاع الوطن نذكر من ذلك أغنية: "يا ذيب العشوة" وتقول الأغنية[1]:

يا ذيب العشوة لا تعوق لا تعلي صوتك

أرجع للجبل راهم العديان تفاهموا على موتك

أحليلي من العبد الدوني خلي يمشي وروح يا خويا روح

مع إضافة جملة من الغُنات والإيقاعات الموسيقية التي تؤثر على نفسية المستمع، وهنا يقصد مؤدي هاته الأغنية: "ذيب العشوة" بالمجاهدين في الجبال، ويحذرهم من النزول إلى أسفل الجبل والاستزادة بالمؤونة لأن هناك حركة خيانة في المنطقة، في لغة لا يفهمها إلا المجاهدون والسكان أثناء سماعهم لهاته الكلمات،

[1] المخبرة ح. ل، 84 سنة فرقة البْلالة، مرسط ولاية تبسة.

بمعنى الليلة لا تنزل ولا تقم بأي حركة لأنهم العديان (الأعداء) تفاهموا على موتك (أي الخونة والحركى)، وقوات الاستعمار نصبت لك كمينا قاتلا، ويتأسف مؤديها من طبيعة الأشخاص الذين باعوا ذِممهم ووطنهم بأبخس الأثمان وينتظر لحظة ذهابهم للإشارة إلى المجاهدين بالقدوم أمنا وسلاما.

3. مجالات حضور الأغنية الجبلية:

نظرا لشساعة الموضوع معرفيا وجغرافيا فإنه يتحتم نقله إلى الأطر المكانية التي وُجد فيها، فالميدان هو وحده الفيصل في تحديد الواقع الفعلي لوجود الأغنية الجبلية من عدمها، وبناءا على ما قمنا به من معاينات ميدانية لبعض مناطق الوطن، والإطلاع على بعض الأعمال الفنية القديمة منها والحديثة في تماسفات ثقافية مختلفة وكثيرة، تؤكد عراقة وأصالة الفنون الغنائية في بلادنا، فإننا نميز مجالات حضور الأغنية في:

– **المَحْفل**: ويقصد به العرس في المناطق الريفية، ويتميز بأداءات مختلفة باختلاف اللهجة والمنطقة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، ويميزه احتفال النجمة أو السابع في الشرق الجزائري، وهي عبارة عن موروث ثقافي مرتبط بالمرحلة الزمنية الخاصة بالزواج، فسابقا كان الزفاف يتم بسبعة أيام قبل العرس وسبعة تليه، وتكون التسميات مرتبطة بالنجمة فيقال سبعة نجوم، لأن أساس العرس هو السمر الليلي، وكذا لارتباط الثقافة الشعبية فيما سبق بعلم الفلك فكل يوم يمثل كوكبا سماويا ضمن كواكب المجموعة الشمسية، تعززها نجمة العرس في منتصف الفترتين (العربي، 2016، صفحة 123) ، فتحتجب خلالها العروس الجديدة في بيت الزوجية ولا تظهر إلا بنهاية اليوم السابع لزيارة أهلها، وتحيل هذه التسمية إلى النور الساطع من النجوم في الليل ككناية عن الممارسات الثقافية المنتشرة في زمن معين في بلادنا، بقيت آثاره في المناطق الريفية والجبلية فقط، حيث تحمل العروس في محفل نسوي وسط الأغاني البدوية مساءا من بيت الوالدين إلى بيت الزوجية وبهذا تسمى نجمة العرس أو محفل النجمة.

– **الختَان**: يعتبر الختان من المناسبات الاجتماعية التي يغلب عليها طابع الممارسات الموسيقية الاحتفالية، وبذلك يكون المنطوق الجبلي العتيق المتأصل في ربوع الوطن جزءا لا يتجزأ من الهوية الثقافية للشعب الجزائري يبرز فيها الطابع الغنائي الجبلي بوضوح.

– **المُمَارسات اليومية**: تنتشر في ربوع الجزائر الأصوات الشعبية المؤدية للمقاطع الموسيقية الجبلية، وخصوصا في المناطق الداخلية للوطن الريفية منها والبدوية، ليفصح مؤديها عما يخالجه من مشاعر

وأحاسيس أثناء قيامه بمختلف الأعمال والمهام اليومية، ويعتبر وسيلة لإخراج الطاقة السلبية والهموم من الجسد والنفس أثناء تحمل مشقة الرعي خصوصا أو الاعمال الشاقة لبنية الرجل، فيؤديها بأصوات تخر لها الأذان استماعا لوحده، أو في طقوس التويزة الجماعية التي مازالت تعرفها بلادنا، ومن بينها: تويزة الحصاد، تويزة الزيتون، تويزة البناء، تويزة المنسج.

رابعا: نتائج الدراسة

إذا ما تم دراسة موضوع الجبل دراسة سوسيوأنثروبولوجية ككيان مادي سوسيوثقافي، وتم فيه التركيز على جانب الآداب، التراث، والأغنية الجبلية، سنتوصل إلى استخراج مصفوفة متكاملة خاصة بهذا الموضوع تتمثل في إلهام: الشعراء، الأدباء، الكتاب، والمؤلفين في مختلف المجالات، من هذا الجماد الحي الذي يؤثر حقيقة بهيبته وكبريائه على أي عقلية وذهنية مهما كان نوعها، وإلا كيف نفسر الشعور الذي يتملكنا أثناء الصعود إلى قمة عالية وكيف نرى العالم من خلالها ونستصغر أنفسنا إلى درجة كبيرة.

الأغنية الجبلية تؤدي وظائف داخل إطارها الاجتماعي والثقافي، منها:

- تقوية أواصر العلاقات والمحبة بين أفراد المجتمع.
- بث روح التضامن من خلال الاستماع إلى ملاحم السابقين في التضحيات الخالدة والعظيمة.
- زرع مجموعة من القيم والمعتقدات التي تخص البيئة الجبلية والريفية.
- تشجيع التنافس والممارسة لهاته الرياضية النفسية بالفنون القولية حفظا وتلقينا وأداءا.
- تساهم في اكتشاف المواهب الشابة والحناجر الذهبية.
- تبعث على روح التنمية من خلال تمجيد المنطقة التي تم تأدية الأغنية فيها باكتشافها واستغلالها سياحيا.

يمكن القول أيضا أن للأغاني الجبلية التعبير عن هوية المجتمع، من خلال:

- المفردات الدالة على جغرافية المنطقة.
- التعابير التي ترتسم على وجه المتلقي والمستمع.
- كشف اللثام عن بعض المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها المنطقة.

- إبراز نوع العلاقات السائدة بين الأسر ونظام الحياة الخاص بالمنطقة.

خاتمة:

لعب الجبل دورا هاما في حياة الأنبياء والصحابة والأولياء وكان هو الصَوْمعة والدير والمعتزل، وبقي في أذهان العلماء والفلاسفة لغزا محيرا بين البعد الأسطوري والإنساني، فأصبح موضوعا للأبعاد الطبيعية والإيكولوجية، وفضاءا جغرافيا يستريح فيه الناس من كآبة المدينة وقسوة الحياة، ومنبعا للأفكار والإلهامات.

ولعل موضوع الأغنية الجبلية وعلاقتها الوثيقة بهذا الصرح المخلوق بقدرة الله عز وجل لم تنل منا ما يكفيها من الدراسة والتمحيص، إلا أنها كموضوع حساس في مجال الإنسانيات والأدب والتراث كانت بمثابة الفضاء المعنوي، المرجعية والتاريخ، لأن الفنان يلجأ دوما إلى الاستعانة بالتراث وإحداث ما يسمى بـ: "التحويل الرمزي" transformation symbolique، وأن يعبر عن تجربته الخاصة موظفا في ذلك كلّ ما يستطيع الاستعانة به من عناصر التراث البشري، يثري به فكره الفني ورؤيته الأدبية، حيث تلعب الأطر المعرفية لموضوع الجبل دورا بارزا في بناء كلمات تلك الأغاني، وبالتالي مهما حاولنا إعطاء الموضوع من كلمات معبرة لن نستطيع إيفاء هذا الكيان حقه من الدراسة.

قائمة المصادر والمراجع

1. féderation francaise des clubs alpines et montagnes. (s.d.). *Les sciences sociales et la montagne*. Récupéré sur féderation francaise des clubs alpines et montagnes: https://www.ffcam.fr/CS-sociologie.html
2. Pierre Bourdieu .(1980). *Le Sens Pratiques , annexe: la maison ou le monde renversé* . Paris :Édition Minuit.

3. الزازية برقوقي. (1 10, 2017). الثقافة الشعبية والثقافة العالمة بين المعنى والمصطلح مقاربة إثنوموسيقولوجية حول الأغنية الشعبية. *الثقافة الشعبية*(39)، 174. تم الاسترداد من &page=article&https://folkculturebh.org/ar/index.php?issue=39 id=741

4. حبيب مونسي. (21 07, 2010). *موضوع الجبل في شعر الثورة، مفدي زكريا نموذجا التجلي الجمالي*. تم الاسترداد من مجلة أصوات الشمال مجلة ثقافية الكترونية: http://aswat-a=10804&c=1&elchamal.com/ar/?p=98
5. رشيد الشريف. (04 09, 2018). *إثنوموسيقولوجيا*. تم الاسترداد من المركز التونسي للنشر: http://ctupm.com/ar/category/ethnomusicology
6. عاطف عطية. (1993). *المجتمع الدين والتقاليد بحث في إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين والسياسة*. بيروت, لبنان: جروس برس.
7. عبد الرحمان ابن خلدون. (2008). *المقدمة* . بيروت, لبنان: دار الأرقم.
8. عبد الرحمان مكاحلية. (2016). بقار حدة جبل بوخضرة. بوخضرة, تبسة، تبسة، الجزائر. تم الاسترداد من https://www.youtube.com/watch?v=Fvcr2-_nYg8
9. علياء العربي. (2016). مدخل لفهم فني الصَوت والصُوت مدلول المصطلحين وخصوصيات الممارسة الموسيقية بين الخليج العربي وتونس. *الثقافة الشعبية*(33)، 123. تم الاسترداد من https://folkculturebh.org/ar/index.php?issue=33&page=article&id=626
10. عمر الطباع. (2006). *ديوان ابن خفاجة الأندلسي*. بيروت, لبنان: دار القلم للطباعة والنشر.
11. فريد العثماني، و محمد الغازي. (10 06, 2013). *مفهوم الجبل ومقاربة المخزن المغربي للجبل، الطبيعة والتلوث، ونشاط حركات الخضر*. تم الاسترداد من الحوار المتمدن: http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=363454&r=0
12. كمال السعيد. (2014). *الجبل موطن التنوع الثقافي*. تم الاسترداد من مغرس تازة توداي: https://www.maghress.com/tazatoday/31866
13. محمد بن يعقوب الفيروز آبادي. (2005). *القاموس المحيط*. بيروت، لبنان: دار صادر.
14. مصطفى بيطام. (2013). الغناء وأنواعه عند العرب قبل الإسلام. *حوليات جامعة الجزائر، 15*(01)، 233.
15. ميلود طواهري. (2016). *المقدس الشعبي تمثلات مرجعيات وممارسات*. بيروت, لبنان: دار الروافد الثقافية ناشرون.